المقدمة
اللحاق بالركب الصيني

لماذا الاستثمار في الصين؟

بعد الفراغ من قراءة هذا الكتاب، أتمنى أيها القارئ الكريم أن توافقني الرأي أن هذا البلد لا يزال يوفر فرصاً عظيمة للمستثمر الجاد في القرن القادم.

هذا بالضبط ما سبق وقلته لنفسي بالعودة إلى عام 1984، عندما سعيت لأكون القادم الأول في الغرب -وربما الشخص الأول من قبل- الذي يمتطي دراجة نارية ويجول بها في أنحاء الصين، في ذاك الوقت، كنت قد كونت ثروة كافية بوصفي أحد المؤسسين لصندوق استثمار عالمي يعرف بـ كوانتوم Quantum، مما ممكنني من الاستمتاع بمسكن في نيويورك والقيام بإحصاء الأرباح التي جنيتها، ولكن بالرغم من ذلك فقد كنت دائماً واحداً من أولئك الرأسماليين المغامرين الذين يفضلون تذوق طعم التحرك الحقيقي واستنشاق رائحته عوضاً عن الجلوس في غرفة الإدارة للقيام بمسح للرسومات واللوائح.

كان الهدف النهائي من وراء استبدالي لبزتي ذات القطع الثلاث بخوذة ولباس من الجلد أن أقوم بجولة حول العالم على دراجتي - لأنظر وألحظ

في الحين ذاته ما بوسعي من تغّيرات طرأت على مجتمعات واقتصاديات على قدر ما يسجله عداد المسافة المثبت على الدراجة، وبقدومي إلى سور الصين العظيم معتمداً على منظومتي الخاصة من العجلات، وقراءتي لواحد من أكبر الشرائح الإنسانية، أضفى عليَّ شعوراً بأن ما فعلته كان الهروب الأمثل من ضغط وزحمة وول ستريت Wall Street*.

وفي النهاية، استغرق الحصول على أذونات السماح المطلوبة من السلطات الصينية وقتاً أكثر، ووقفات بين الفينة والأخرى أكثر مما قضيته مسافراً لأعبر مسافة ثلاثة آلاف ميل من مدينة شنغهاي الساحلية حتى طريق كراكورام Karakoram السريع الذي يقع على حافة الحدود مع باكستان، وعلى ما أظن، فإنني احتجت لجميع تلك الوثائق الرسمية لأنه لم يسبق لأحد قبلي أن تجرَّأ على طلب شيء بمثل هذه الغرابة.

كانت رحلتي الطويلة أبعد ما تكون شبهاً بنزهة في مشرب للشاي. لقد تحولت الطرقات إلى رمال أو غارقة بالفيضانات، ولم تكن هناك علامات تحويلات الطرق من النوع الذي أعرفه لتدلني على وجهتي المقصودة، ونالت الصخور من عجلات دراجتي ففقدت هذه الأخيرة شكلها المصقول، أما قطع الغيار فقد كانت شبه معدومة، وكذلك المطاعم الصينية التي لا تتوافر فيها المواصفات اللازمة، وبالرغم من هذا فإن المآدب التي حظيت بها كانت لذيذة الطعم، وبعد أن نالت الرحلة من رقبتي التي تصلبت، عمد طبيب في إحدى البلدات الصغيرة إلى أن يجعل مني واحداً من حيوانات التجارب عندما عالجني بالإبر الصينية وقد

* كناية عن بورصة نيويورك - المترجم.

أوقفت من قبل رجال شرطة في أثناء السير مرات عديدة أكثر مما يفعل طائر الجوّاب الشهير بعدوه السريع عندما يشق طريقه بأمان لِيخلّف وراءه أمَّة من سائقي الجيل الأول، وتعرضت إلى نفاد الوقود وأنا ملاصق لقاعدة عسكرية سريّة، كان التوجه بالطلب إلى جيش التحرير الشعبي من أجل ليترين إضافيين من البنزين أمراً شاقاً، لكن بعض عناصر هذا الجيش قدّموا لي في النهاية قدراً ضئيلاً من المساعدة لكي أستمر في رحلتي، غير أن لساني انعقد عن الكلام في صالة بدائية للرقص تقع وسط حديقة بلدة صغيرة عندما طلب مني أحدهم أن أكون شريكه في رقصة تعتمد على خطوات بطيئة وأخرى سريعة، في ذاك الحين كان هناك القليل من الناس الذين يتحدّثون اللغة الإنكليزية للإفصاح عن أعمالهم، وكان الكلام يخرج من أفواههم أشبه بالهرولة، ولم يكن الناس المحليون واثقين بتصرفاتهم تجاه «شيطان أجنبي» أشيب الشعر جاء من ولاية آلاباما دون أن يصطحب معه آلة العزف المسماة بالبانجو، ولكن بوجه ملطخ بغبار الصحراء الواقعة بين الصين ومنغوليا.

ولكنني أصبت بما يشبه الرعشة عندما عدت إلى الصين بعد ذلك مرتين، الأولى عام 1990م على متن دراجة نارية، وبعد تسع سنين في سيارة فاخرة من طراز مرسيدس ضمن جولة غير عادية استمرت ثلاث سنوات قطعت فيها 152.000 فرسخ احتفالاً بقدوم القرن الحادي والعشرين للميلاد. في كل مرة كنت أعود فيها إلى أرضِ الصين كنت أشعر وكأنني قادم إلى بلد جديد لم أعهده من قبل. غير أنني رأيت كيف أن جميع افتراضاتي عن جمهورية الصين الشعبية ذات التبدل السريع كانت خاطئة تماماً. لقد استنتجت لاحقاً أنني والصينيين كنا على طرفي

نقيض: الشعور الفردي الخالي من الإحساس الذي يعشق الانطلاق في الطرق الفسيحة، ويبجّل الأسواق غير المنضبطة، في مقابل الشيوعيين الملتزمين فكر الجماعة في دولة تؤمن بالإلحاد.

وكانت آخر واقعة تلك التي أشعرتني بالطمأنينة في إحدى الليالي الأولى من رحلتي، فعندما ولجت إلى فندق يقع في الطرف الغربي البعيد المسلم، رأيت لافتة معلقة في الردهة كتب عليها «بيت الله»، إلى جانب ذلك، عرفت أنه لو أعطى الناس الذين يحكمون الصين الفرصة لأمريكي متحرر مثلي يعمل بالتجارة وأن ينطلق دونما قيود لوجب حصول تحوّل رئيس في مسار الأمور.

لطالما تمنيت القول لو أني كنت كشافاً أبحث عن البدايات أو عن أسهم رخيصة الثمن أستثمرها في شركات واعدة، ويا ليتني أفضيت إلى أحد أتوسم فيه الاستماع لما أقول: إن هؤلاء الناس قد يكونون على عتبة تبوء واحد من الاقتصاديات المزدهرة عبر عشرين عاماً، في عام 1998، بدأ زعيم الصين الأعلى تنغ زياو بينغ في إعادة بعث تقاليد التجارة التي كانت محظورة عقوداً من الزمن بسبب الحروب والنزاعات الأهلية، والأفكار الشيوعية المتعسفة. ولهذا فقد وفرّت لي رحلاتي نظرة مذهلة ذات أساس متين عن «الطريق الرأسمالي» الذي بدأت الصين تسلكه، ولم تكن بعد أسواق البورصة الصينية مفتوحة لمزاولة العمل، لكن الأسواق الحقيقية -كتلك التي يبتاع فيها البشر السمك أو قطعة من الحرير- أظهرت لي كيف كان الفلاحون وقد بدؤوا في تذوق طعم ثمار سياسة رفع القيود والسماح بنشوء المشروعات الحرة، وجعلني التذبذب في أسعار أنواع الجُحّ

«البطيخ» قبل أن تستقر عند المستوى الصحيح للعرض والطلب وطريقة المساومة التي كان يتبعها البائعون، جعلني أتمنى لو أنني قمت بشراء بعض عقود الجُحِّ الآجلة.

فجأة، بدأ الصينيون في رسم خطوط حياتهم المهنية ويضعون المخططات اللازمة لمواكبة حياة أفضل لأبنائهم، لقد انطلقت أخيراً روح المبادرة الكامنة واللافتة للنظر من عقالها لدى أمة يزيد تعدادها عن المليار نسمة، ولم يحدث لي من قبل أن شعرت بجو من الإثارة لدى سماعي صاحب مطعم جديد يجاهر مفتخراً بقدرته على سداد أجور عماله، أو أن أعود لأجد مدخرات مزارع وقد أعاد استثمارها في مصنع للسجاد تعود ملكيته إليه، أو مشاهدتي لأولاد في مقتبل العمر ممن حصلوا على المال من ألعاب الحظ التي تمارس على قارعة الطريق وقد تحولوا لجهة أعمال أكبر، أو رؤيتي لفلاح يحب الاقتناء ليصبح «ملك البساتين» بعد شرائه كامل كمية محصول التفاح المتاحة في منطقته، والذي جعل الأمر كله أكثر لفتاً للنظر الطريقة التي عاد فيها جميع الناس أينما كانوا للارتباط بالتقاليد التي ساعدت الصين قروناً خلت لتقود العالم في التجارة والعلوم والابتكار.

لا يسعني الادعاء بأن جميع عملياتي المظفرة قد منحتني «دوراً صينياً» حقيقياً، ربما مجرد موطئ قدم، ولا كنت في يوم من الأيام من أولئك ذوي العيون الحالمة المصابين بالدّوار بأن سيكون لي أكثر من مليار زبون؛ كل واضع يده في جيبه ليخرج ما فيه ويدفعه لي. ومنذ أمد ليس بالبعيد كعام 2004، عندما كانت أسعار الأسهم الصينية لا تزال في طور الركود بسبب

الأسعار المتهاوية لأسهم الشركات المملوكة من الدولة، وكذلك من كثرة القيود، تحدثت علناً وأعربت عن تشاؤمي في حينها حول الاستثمار إلى درجة أن البرنامج الذي كان يبث في قناة التلفاز الوطنية خارج العاصمة بيكين أخضع ملاحظاتي للرقابة.

ولا يزال لدي اعتقاد تملكته مبني على الخبرة والحدس وأكدته وقائع الأرقام ودفع بي إلى أن أدعو كل من يقرأ هذا الكتاب إلى أن يقفز ويحجز له مكاناً في رحلة تعود عليه بالربح الوفير، وبالتأكيد ستكون هناك محطات وعرة في هذه الرحلة، لكن قناعتي بأن أولئك الذين قُدر لهم المضي إلى آخر المطاف سيرون بأم أعينهم مكاسب جمّة على المدى البعيد، وفي الحقيقة، فإن تلك المحطات الوعرة المليئة بالحفر ستوفر أفضل فرص الشراء للمستثمرين وكلما كانت الحفر خشنة الحواف كان ذلك في مصلحة المستثمر.

ويمكن القول: إن إنجاز هذا الكتاب قد استغرق ثلاثة وعشرين عاماً من الوقت وخمسة عشر ألف ميل من الترحال، وأملي أن يستخدم الكتاب خريطةً لاستثمار العوائد في الصين، وكما يذهب المثل الصيني إلى القول: «إذا أردت معرفة الطريق أمامك فما عليك سوى سؤال الذين سبق أن قطعوه من قبل».

عندما ألقيت نظرة خاطفة من السماء على المدن الصينية، كانت فارغة وكئيبة وفيها القليل من الأبنية مدببة الرؤوس مشيّدة على الطراز السوفييتي، بحلول عام 1990، صارت هذه الأبنية محاصرة بروافع التشييد (كان لمدينة شنغهاي وحدها حصة الأسد من هذه الروافع من

بين مدن العالم)، وفي الوقت الحاضر لا يمكن مشاهدة هذا العدد من الروافع لأن قواعد محطة كهربائية حديثة كانت قد صُبّت، واليوم يستمتع العالم بمشاهدة ما سيتم رفعه من أبنية عالية على تلك القواعد، وأخيراً وبعد سنوات من الخطوات البطيئة، فإن الشيء ذاته يحدث لأسواق الأسهم في الصين.

منذ ما يقارب ثلاثة عقود خلت، ما زالت الصين البلد الأسرع نمواً في العالم، فبمعدل من الادخارات والاستثمار فاق نسبة 35% التي تخص تعداد سكانها البالغ ملياراً وثلاث مئة مليون نسمة، واحتياطات النقد الأجنبي التي هي الأعلى على وجه الكرة الأرضية، فإنه يمكن القول: إنها راسخة القدم ومؤهلة لأن تكون أهم دولة في مستقبل الجنس البشري.

وسأخطو خطوة أخرى إلى الأمام: فكما كان القرن التاسع عشر قرن إنكلترا، واختصت الولايات بالقرن العشرين، فإن القرن الحادي والعشرين سيكون من نصيب الصين لتضع قواعد اللعبة وتتفرد بالسيطرة، وقبل أن أخوض في عرض أسهم أول شركة فإن أفضل نصيحة أستطيع تقديمها لقارئ هذا الكتاب أن يقوم بتعليم أولاده أو أحفاده اللغة الصينية؛ لأنها ستكون أهم لغة على الإطلاق في أثناء حياتهم.

وبإلقاء نظرة على الصين في عالمنا الحاضر، يمكن أن أرى متسعاً فسيحاً من النمو أمام صناعتها، ويشمل ذلك الطاقة والكهرباء، السياحة والإعلام، الزراعة، البنية التحتية التقانة المتقدمة. وسأسلط الضوء على الأشياء التي يمكن أن تبدو «الدليل الذي لا لَبْسَ فيه» لأوضح لأولئك

الذين يريدون أن يضعوا جانباً الأحكام المشبعة ويتطلعوا إلى الاستثمار في المستقبل، كمستقبل شركة الهاتف إيه تي أند تي AT & T مايكروسوفت، وجنرال موتورز بانتظار جلاء ووضوح هذه الاستثمارات، ولا عجب كوني مقداماً عندما تحط الرحال بي عند هذا المتجر الصيني.

وفيما سآتي عليه، سأشرح بالتفصيل آليات شراء أسهم هذا الفيلق المتعاظم في الشركات التي تعرض أسهمها، وسأخوض في الوسائل المثلى لانتقاء أفضل الصفقات في كل من شنغهاي، شينزن، هونغ كونغ، أو حتى نيويورك وبوساطة أقرب سمسار للأسهم، في الظاهر وعلى السطح، هناك نظم وقيود كثيرة تحكم هذه البورصات الصينية التي تبدو مثبطة؛ لذلك سأعمد إلى توضيح الأسهم الصينية التي تبدو أول وهلة مثيرة للحيرة وهي التي تصنف بأسهم أ، ب، وسأعيد أبجدية أدوات التعامل التي تأتي في المقام الثاني لما يعرف على سبيل المثال (بوثائق الإيداع الأمريكية، وهي أسلوب متبع يوضح للشركات الأجنبية كيفية الدخول إلى الأسواق الأمريكية مما يسهل من ثم على الأمريكيين طريق الاستثمار في الصين)، وسأقول بتنقيط صيغة الضمير أنا عندما أقوم بتقويم التقدم المتسارع للصين في عرض الأسهم المصدرة أول مرة بغرض الاكتتاب عليها التي يصعب مقاومة الرغبة في شرائها، وفوق ذلك كله، فإنني أريد أن أقلل من عامل التهديد وأكون واثقاً بأنه عندما يتعلق الأمر بأموالك أيها القارئ الكريم، سأكون حريصاً على ألاَّ يضيع مثقال ذرة من المعلومات الضرورية لك وذلك بحكم ترجمتي لهذه المعلومات.

وفي السياق، سأعرض تحليلي لاقتصاد الصين وألخص الحركية التي تقف وراء العوائد والابتكار، وسأوضح سياسات الحكومة ذات الأهمية التي تؤثر في الصناعات المحلية والأسواق العالمية وذلك كما هي موضوعة في آخر خطة خمسية، التي أُرسيت قواعدها من حكام الصين، والتي تمثِّل المسوَّدة الرئيسة للبلاد، وفي نيّتي أن أظهر لكل من المستثمرين الأفراد والمؤسسات السبيل للاستفادة من الظواهر الاقتصادية المتجلية التي يمكن فقط لأولئك المفتوحة عيونهم على الصين أن ينتهزوا فرصة إلقاء نظرة خاطفة عليها، وعندما أجد أن هناك ضرورة سأحلل إطار عمل منظمة التجارة العالمية التي ضمت الصين إلى عضويتها عام 2001، وفي كثير من الحالات فإن التغيرات الحاصلة في الأنظمة، وتخفيض الرسوم الجمركية، والوعود بانفتاح أكبر للأسواق على المنشآت الأجنبية ليست سوى البداية لصياغة المنافسة في حقول كالمصارف، والإعلام، والاتصالات الهاتفية. في عام 2001، حذّر بعض المتشددين من أن التخفيف من قيود كثيرة على التجارة قد يؤذي الاقتصاد المحلي، ولكن على العكس ظهر للعيان أن القواعد المتحررة المنظِّمة للصادرات والواردات لم تؤدِ إلا إلى فتح الأبواب أكثر من ذي قبل أمام الأعمال لكلا الطرفين، وحفّزت الابتكار ضمن صناعات الصين المبهمة.

وعبر «ملفات صينية» سهلة التناول - إذا صح القول - سأعرِّج على بعض المؤسسات الحديثة التي تتطاول في البنيان بالتزامن مع ظهور الصين الجديدة، وسأضع بين يدي القارئ رموز الأسهم، وطرق القراءة المهمة لمسارات الأرباح/الإيرادات، والأرضية ذات الصلة لكل منشأة،

هناك بعض الشركات التي تعد من الرواد الذين يقفون على أرض صلبة، وأخرى لا تزال تتلمس طريقها في الأسواق الناهضة، والكثير من هذه الشركات تظهر حتى هذا الحين أسساً غير واضحة، ولا يزال أمام العديد منها طريق طويل تمشي فيه، وجميعها تعد أمثلة وليست على سبيل انتقاء بعينة أو جملة من التوصيات، وسآتي أيضاً على ذكر الشركات الأجنبية التي استفادت كثيراً من توسع الصين الاقتصادي، لكنها لن تكون الشق الرئيس من الموضوع الذي سأعرضه، وسأعرِّف القارئ المشروعات التي تحمل في طياتها الأمل في تحقيق المكاسب التي لم يُسمع بأسمائها من قبل وقد يجد صعوبة في النطق بأسمائها، وجميعها تقريباً تظهر النتائج التي يمكن أن تتعاظم.

وعلى الوتيرة نفسها سأنظر إلى ما يحمله المستقبل في طياته عن طريق عمل مسح لتاريخ الصين، الحديث والقديم، بحثاً عن دلالات حول أهداف الصين والوسائل المعتمدة لبلوغ هذه الأهداف، لكنني لن أتهرَّب من اتخاذ نظرة قاسية على الأشراك المحتمل الوقوع فيها سواء انطوت على عوامل توتر السياسة الجغرافية أو التهديدات البيئية.

ليس المقصود بهذا الكتاب أن يكون دليلاً يوزع بالمجان على كل عابر سبيل، ويكون مضمونه مراهنات الأمس التي أُكِّدت نتائجها، ولن أعلن على الملأ عن أسهمي التي أمتلكها، ليس لأنني أعد هذا التصرف نوعاً من تضارب المصالح، ولكن لأن العالم لديه ما يكفيه من التابعين الذين لا يبصرون، وبدلاً من أن أضع بين يدي القارئ متى يستثمر وأين يقوم بذلك؛

لأن هذا متروك له، فإنني سوف أقدم إجابات عن كيف ولماذا، التي تساعد من يريد أن يمضي في ركب المسار الصيني النامي لدرجة تثير الإعجاب.

في كتابي السابق، «السلع الرائجة»، عرضت كيف أن الأرقام التي لم تتمّ على العرض والطلب الحقيقيين قد ضمنت سوقاً إيجابية مدة طويلة امتدت لعقدين من الزمن عبر شريحة كاملة من الاستثمارات لطالما أعرض عنها أكثر الناس. إن الاتجار بالسلع لهو - أيضاً - إحدى السبل العظيمة لجني الأرباح الناشئة عن التوسع في الصين، حيث إن الطلب المتزايد على كل شيء بدءاً من النحاس والنيكل إلى نبات الصويا والزيت سيظل متحكماً في اتجاه الأسعار لسنوات قادمة، وإن امتلاك أي قطعة من هذه الأشياء التي لا يستطيع اقتصاد الصين المتعاظم أن يتخلى عنها هو أمر مضمون للغاية دونما خوف من أداء الحكومة أو الإدارة أو أموال التقاعد، وإذا كنت تملك سلعاً بغرض البيع فإن الحكومة الصينية ستدفع لك ثمنها في الوقت المعلوم.

لكني في هذا الكتاب أود أن أعرض لطيف أوسع كثيراً من الخيارات المتوافرة لامتلاك حصة في مستقبل الصين، وكما عملت من أجل سوق السلع، فإنني أيها السادة أريد أن أشير نحو سوق آخر بدءاً من بدايته التي تمتد في رحلة طويلة نحو الصعود، بغض النظر عن العقبات التي تعترض طريق هذه الرحلة.

ولنفرض أنكم في حيرة من أمركم، فإن ثقتي ليست مبنية على حنيني لرحلاتي على الطرق في الماضي. وما لم تكونوا قد خلدتم إلى صومعة كالرهبان أو أمضيتم العقد الأخير من الزمان تحت صخرة نائية، فإنني

أفترض أنكم على دراية بأن انفتاح الصين على العالم قد أدى إلى أكبر انتعاش اقتصادي منذ الثورة الصناعية التي قامت في إنكلترا.

وقد علّق أحد أصدقائي الصينيين الذين عايشوا الأحداث على ذلك بقوله: «لقد ارتقت البلد عملياً من الحضيض المالي الذي كانت فيه، ففي عام 1980، وتماماً قبل بزوغ فجر الإصلاحات الاقتصادية، كان الناتج الإجمالي للفرد والمبني على القوة الشرائية لا يتجاوز 410 دولارات مقارنة بدخل الفرد في الولايات المتحدة الذي كان في ذاك الحين يصل إلى عتبة 12,230 دولاراً في السنة، وبينا تمتع الاقتصاد العالمي مدة طويلة من النمو بعد الحرب العالمية الثانية، كنّا نحن الصينيين نعيش في عزلة تامة داخل أبواب موصدة في محاولة لتطبيق اشتراكية وهمية، لم يكن هناك وجود للملكية الفردية حيث تعود الملكية برمتها إلى الدولة، ولا أثر للمشروعات الحرة نظراً إلى أن كل شيء يخضع للسيطرة المركزية، والمنافسة معدومة لأن الطعام والملبس وحتى زيت الطهي كان يوزع بالحصص بمقدار بالكاد يفي بمتطلبات العيش للفرد، صناعة الخدمات غير موجودة، حيث يتعين على المواطن دوماً أن يخدم الشعب، بدلاً من أن يخدم نفسه، لقد كان من المتعذّر تغيير المهن، أو الوظائف، أو رب العمل، أو حتى استحداث أي أمر جديد لأن العمل الموكل للفرد كان مقرراً سلفاً منذ فجر ولادته، أما الأسواق الرأسمالية فقد كانت تنعت بأنها مصدر للشر والآثام؛ ولذلك لم يكن هناك من خطوة أعجب من تلك التي نعيشها اليوم».

وبنسبة قاربت في المتوسط تسعة في المئة منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين، فإن الاقتصاد الصيني كان يتضاعف مرتين في كل عشر سنوات ما عدا بضع إشارات ضئيلة تدل على التباطؤ.

وإذا ظل التنبؤ على حاله فإن الصين ستسبق الولايات المتحدة بوصفها الاقتصاد الأكبر في العالم في مدة تقدر ما بين عشرين إلى ثلاثين سنة من الآن، وإضافة إلى ما ذكر فإن الصين قد جذبت ما يقرب من سبعين بليوناً من الدولارات في شكل استثمارات خارجية في عام 2006، التي إذا أضيفت إلى فائض الميزان التجاري يصبح معها احتياطي القطع الأجنبي لدى بيكين أكثر من 1.3 ترليون وثلاثمئة ألف بليون من الدولارات (الأعلى في العالم الآن). في عقد مذهل من الزمان ازدادت قاعدة الصين الصناعية للسلع المعمرة بوتيرة وصلت إلى مئة ضعف.

لكن كل هذه الأرقام الضخمة هي البداية فقط، فالمكاتب الأنيقة في الأبراج الشاهقة وخطوط التجميع التي كانت حقولاً يزرع فيها الرُّزُّ لا تعني كثيراً بالمقارنة بإنجازات الصين التي تفوق القياس في السلوك الإنساني والوعي الدولي، والفرص السانحة لإحراز الاختراقات، لقد تغيرت التحية التقليدية السائدة في الأرياف من «ماذا كان طعامك اليوم؟» إلى «هل تصفحت شبكة المعلومات اليوم؟» إن المديرين الصينيين والمهندسين والفنانين والرياضيين والمصممين يمسكون اليوم بزمام المبادرة ويقودون العالم نحو «القرن الصيني».

حتى الآن، يذكرني هذا المكان بالكثير من واقع أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر، عندما صعدت الولايات المتحدة على خشبة المسرح العالمي بعد حرب أهلية واضطراب سياسي، كان هذا العهد يدعى بباروناتِ النهب، وتعاظمت فيه مدن جديدة كشيكاغو، واتسم بالاختراعات التِّقْنية الرائدة كالهاتف والمصباح الكهربائي وظهرت فيه الشركات الدولية العملاقة مثل

ستاندرد أويل Standard Oil في مجال النفط. لقد كان زمن التوسع غير المكبوح وقامت المنشآت الحرة وتكونت الصناعات الأساسية، وكذلك كان هناك الكثير من المخاوف التي تثير فزع المستثمرين: كاغتيال الرؤساء، وأعمال الشغب العرقية والقلاقل العمالية، والنضال الإنساني، والمقدار القليل من حقوق الإنسان، والعديد من الأزمات الاقتصادية، وانتشار ظاهرة الفساد في الحكومات ودور الأعمال، وهذا ما كانت عليه حال الصين في ذلك الوقت: شرق همجي في الصين يحاكي الغرب الأمريكي في الماضي. ولنتخيل كيف كان مستقبل أمريكا غامضاً في نظر العالم سنة 1908؛ فإن الصين تبدو في عالم اليوم قريبة الشبه بأمريكا الأمس، فوضوية ومفعمة بالتحديات، ولكن بإلقاء نظرة على اتجاه الاستثمارات الأمريكية ما بين 1908 و2007، يمنحني الكثير من الثقة بالصين في 2008. وفي حقيقة الأمر، انهار الاقتصاد الأمريكي عام 1907، وعمّت النشوة أصحاب النظرة السلبية. لكن حتى الذين أقدموا على شراء الأصول المنتجة بأغلى سعر في ذاك الوقت سارت بهم الحال من الأسوأ إلى الأحسن وسبقوا الآخرين بمسافات بعيدة.

ليس من طبعي ركوب الموجة السائدة لا سيما تلك الكبيرة، لقد كان ذلك عندما ابتعدت عن الحشد الذي حققت عبره أفضل استثماراتي، في وقت كتابتي لهذا المؤلَّف أظهرت الأسهم الصينية أداءً ملحوظاً قياساً إلى أدائها المتواضع الذي كان في القاع عام 2005. ففي حين تكون هناك فقاعة آخذة في التضخم ولها حضور في قطاعات معينة وربما نلحظ وقتها حصول بعض خطوات التصحيح الدرامية، فإننا نحتاج إلى تهيئة أنفسنا إلى أن فرصاً كثيرة وثمينة ستلوح في الأفق وستمتد لأمد طويل.

هل تريد أن يكون لك نصيب في النمو الذي تتمتع به الشركات التي تتخذ من عاصمة الصين بيكين مركزاً لها؟ أو هل لك رغبة في الحصول على الربح بسبب زيادة القوة الشرائية لأكبر شريحة طبقة متوسطة شهدها العالم حتى الآن؟ أو المشاركة في السلع الاستهلاكية الهائلة التي يمكن أن تنتجها الصين، أو ربما الفوز بقاعدة صلبة للتصدير الصناعي؟ أو تحب أن تكون لك حصة في المجهودات الصينية المبذولة لتطوير المدن والعقارات؟ أو تبذل جهداً في ابتكار أول نبيذ صيني المنشأ فائق الجودة؟ هل تريد المتاجرة بالعملات عندما يتاح لك هذا الخيار؟ أو لعلك تنوي الاستثمار في شركة صينية تتاجر في البضائع لكي تستفيد من حالتي العرض والطلب على السواء، أو في شركة زراعية تلقى الدعم حديثاً بفضل مساندة الحكومة لها، إن احتمالات الاستثمار لا نهاية لها مثلما هي حال الصين.

حان الوقت الآن لأن تخطب وِد الصين وتصبح جميع الأشياء صينية. سافر إلى هناك إذا كان بوسعك فعل ذلك، وإذا سبق لك أن تسلقت سور الصين العظيم، فارجع لترى بأم عينك التحولات الكبيرة، حتى وأنت في بلدك الذي تقطنه خذ بعض الدروس في اللغة الصينية ومن ثَمّ تعلم شيئاً عن الأدوية الصينية، بل اقرأ بعضاً من الكتب الكثيرة التي تصف الحياة في الصين المعاصرة، شاهد أفلامهم السينمائية، المهم هو أن يتطور لديك شعور واضح كيف يبدو العالم في عيون الصينيين وكيف يخطون مسار حياتهم. حاول أن تكتشف كيف ينفق الصينيون نقودهم التي يكسبونها بعرق جبينهم وأين يمكن أن يضعوها لِتنبت وتنمو.

إنني شخصياً من الذين يؤمنون بآفاق الصين الواسعة على المدى البعيد إلى درجة أنني استأجرت مربية صينية لتعتني بابنتي التي سميتها هابي Happy (السعادة)، التي ولدت عام 2003، وهي الآن من السعيدات اللائي يتكلمن لغة الماندرين. كما نصحت من قبل وسأسدي النصيحة ثانية: تخلصوا من الدولارات، علّموا أولادكم اللغة الصينية، وأقبلوا على شراء السلع.

ومن ثَمّ اعتمدوا على خبرتكم الذاتية وافتحوا أعينكم بفطنة بحثاً عن العلامات التجارية الصينية البارزة التي تنطوي على ميزة تنافسية، ولنفترض أنكم ممن يعملون في صيانة آليات النقل؛ لابد أن لديكم مقداراً كبيراً من المعلومات عن السيارات والمحركات والقيمة ذات الصلة لبعض النماذج أو التصميمات الإبداعية، ولذلك فإنني أقترح عمل مسح لصناعة السيارات الصينية لكي تجدوا شيئاً تؤمنون به، وإذا كنتم ممن يمارسون مهنة تزيين الشعر، فلعله يوجد لديكم إحساس نحو العلامات التجارية الخاصة بالأزياء، أو مستحضرات التجميل، فقط تذكروا: أنكم على دراية أكثر كثيراً بهذه الأشياء من سمساسرة وول ستريت.

ولكي تحددوا مسار توجهكم نحو مواطن الثراء في الصين؛ فعليكم أن تستخدموا مشاعركم الخاصة، وتعتمدوا على مبادراتكم الشخصية. وربما وقعت عينكم على «الرقاقة الحمراء» الآتية التي ستصنع في الصين وستجد سوقاً مزدهرة لعقود قادمة، قوموا بعمل الحسابات ولا تعاملوا

الصين بأسلوب يختلف عن أي مكان في العالم، لا تدعوا الحذر يغادركم والتزموا ما تعرفونه من معلومات، إن قصص النجاح في الحياة تُحكى عن أناس يعرفون ماذا يريدون، ويظلون ملازمين العمل الذي يعرفونه ومن ثَمّ يستمرون في مراقبة الأداء بكل عناية، ما عليكم سوى أن تعرفوا ماذا تريدون حتى تصبحوا واحداً من أولئك العمالقة في الصين.

ودعني أؤكد: إن هذا ليس عبارة عن قائمة مفهرسة (كتالوج) يحتوي على نصائح مغرية أو حتى توصيات، لكنه يعبر عن استقصائي لما يحدث في عالم الأعمال في الصين، إن الشركات التي هي موضع البحث قد يحالفها التوفيق أو الإخفاق، لكن هناك بعض النقاط الفاتنة التي يمكن أن تعد بداية لما أعتقد أنه سيجعل من يقرأ كلماتي يتمكن من أداء واجبه بنفسه. وبالاعتماد على الغريزة ومعرفة الأرقام، لعل القارئ يكتشف شركات وصناعات صينية حتى وإن لم يكن هناك أي إشارة إليها بين هذه السطور.

عندما كان الجيل الذي عاصرته في طور النمو لطالما حذرنا آباؤنا من أن الصين تقع في المكان الذي ينتهي عنده شقنا لحفرة في الرمل؛ وكأن الصين كانت في الطرف الآخر من الكرة الأرضية، لا يزال هناك الكثير من «الخبراء» الذين يأكلون لقمة عيشهم بإخافتهم الناس من بلد كان إلى زمن غير بعيد عن الذاكرة عدونا الفكري «الإيديولوجي»، على الناس أن يتوخوا الحذر لكن خوفهم من المجهول والغريب لا يجوز أن يَحُولَ بينهم وبين أقدامهم من أجل اتخاذ خطوة إلى الأمام، ليس هذا هو الوقت الملائم الذي نضيعه بدفن رؤوسنا في الرمال.

منذ أن بدأت التخطيط لجولتي الأولى في الصين، سار العالم بخطىً متسارعة أكثر من أي وقت مضى، فالشعارات الشيوعية عفا عليها الزمن كقبَّعات ماوتسي تونغ التي لم يعد لها أثر، حتى في فيتنام احتل النمو الاقتصادي الهائل المواقع التي كانت مسرحاً للمعارك، كذلك خرجت الهند من عزلتها ومن حالة الطوارئ التي كانت مفروضة في عهد أنديرا غاندي، وفي أقل من نصف الزمن الذي انقضى من حياتي، أصبح ثلاثة بلايين من البشر من أهل قارة آسية جزءاً من الاقتصاد العالمي، وفيما يخص عالم المال فقد تحول مركزه بنحو لافت للنظر إلى مكان آخر. ففي عام 2002، كانت حصة بورصة وول ستريت ثلاثة وعشرين إصداراً أولياً للأسهم من أصل أكبر خمسة وعشرين منها، أما في عام 2006، فقد تقلصت هذه الحصة إلى إصدار واحد فقط.

وأحياناً يتطلب السير في ركب البديهيات تغيّراً في أساس التفكير الذهني، لقد كان الناس لسنوات يحملقون في مؤشرات الصين، لكن القليلين منهم خارجها كان لديهم الاستعداد لتقبّل فكر ثاقب منطقي بعيد النظر، أو ربما كانوا قادرين على إسدال الستار عن راحة البال التي كانوا يشعرون بها لدى نظرتهم على جغرافية العالم من زاوية واحدة (وهي أن الولايات المتحدة هي المركز). ويمكنني القول: إنه على الأقل كان في استطاعة المستثمرين أن يحققوا نوعاً من تنويع استثماراتهم ويحصنوها بالحماية اللازمة من مستقبل ضعيف، ربما كان في انتظار الولايات المتحدة مثلما فعلت أنا شخصياً عندما وضعت أموالي في ثمانية وعشرين سوقاً أجنبياً للاستثمار، ربما كان الأمر كله ينتهي عند الحكمة

التي نطق بها حكيم الصين كونفوشيوس الذي أطلق تحذيراً منذ خمسة وعشرين قرناً مفاده: «إذا لم يأخذ المرء في حسبانه ما قد يحصل له في المستقبل البعيد فإنه لن يجد أمامه سوى الندامة التي تنتظره قريباً».

وتماماً مثلما فعلت في أسواق السلع، فإنني أتحدى جمعنا كله بأن نأخذ نظرة حادة ونرى ماذا ينتظرنا على مسافة لا تتعدى أنوفنا، ولم تكن الصين قريبة إلينا لهذا الحد من أي وقت مضى مثلما هي قريبة منا الكرة التي نلهو بها على الشاطئ أو الدثار الذي نجلس عليه قبالة البحر. وإذا كان أحد بحاجة إلى براهين أكثر، فليقم بإحصاء تقنيات منزله من الإلكترونيات إلى الملابس، ومن الكتب المطبوعة إلى الدمى، وليرى بأم عينه كم منها كتب عليها «صنع في الصين».

لماذا لا يكون للمرء نصيب في صنع بعض من هذه التقنيات؟ ويحضرني مثل صيني قديم آخر «هناك يوم تقضيه في تجفيف شباك صيد السمك وآخر تطرح فيه هذه الشباك في البحر لأجل الصيد».

حان الوقت الآن لكي تعد الشباك.

وأود أن أختم هذه المقدمة بملاحظة أخيرة عن توخي الحذر، إن الحكومة الصينية - وأنا لا أزال أكتب هذه السطور - ما زالت مستمرة في التصدي لأي مخاوف مصدرها فقاعة تلوح في الأفق، وهي في الوقت نفسه ليست واثقة بما سيجابهها في المستقبل القريب، ربما تنخفض أسعار الأسهم وتمنحنا هبوطاً ليّناً، مما يهيئ لنا فرصاً في حينها، على كل حال، لو أن فقاعة بدأت ملامحها في الظهور فإنني أنصح بمدة من التريث

قبل اتخاذ القرار، اقرؤوا هذا الكتاب وتعلموا منه أقصى قدر ممكن عن الأسواق الصينية، وتهيؤوا للحظة المناسبة التي يمكن أن تتحركوا فيها عندما يبدأ المسار في الصعود، وليكن الحظ حليف أولئك الذين جهزوا عقولهم وأنفسهم.